صوبا في النصف الأول من القرن العشرين

المقاومة قبل سقوط صوبا

المقاومة في أهالي صوبا ليست بالشيء الجديد عليهم، فقد ذكرت التقارير أنهم قاوموا إبراهيم باشا أثناء غزوه لصوبا ومحاصرته للثوار، وعندما اقتحمها بعد عدة هجمات، دمّر حصنها وسورها، ونكّل بأهلها، وشتّتهم إلى القرى المجاورة، كما أعدم أحد أبناء القرية أمام أعين أبنائها، ليرهب به بقية أهل صوبا والقرى المحيطة بها.

لم يكن أهالي صوبا بعيدين عن الأحداث التي كانت تدور حولهم في فلسطين، فكما شاركوا في الحروب الأهلية، فقد شاركوا أيضاً في الحرب العالمية الأولى بجانب القوات العثمانية، إذ جندت القوات العثمانية بعض شباب صوبا وبعثت بهم إلى مواقع القتال لصد هجمات الحلفاء، كما أرسلوا بعضهم إلى ميادين القتال في قناة السويس "الترعة"، وإلى اليمن وغيرها من مواقع القتال.

كان مركز التجنيد في القدس وقضاها في مبنى قلعة القدس المعروفة ب "القشلة"، فكان بعض الشباب يتهرب من التجنيد، فيلجأ بعضهم بعمل عاهة بنفسه، كأن يقطع إصبع يده الكبير، أو يدفع فدية من المال عوضاً عن تجنيده.

عندما دخلت القوات البريطانية الأراضي الفلسطينية، وتراجعت القوات التركية أمامهم، تمركزت القوات التركية في الجبال المطلة على باب الواد في جبال أبو غوش وصوبا وساريس، ودارت بينهم معارك طاحنة أوقفت تقدم القوات البريطانية من التقدم نحو مدينة القدس عبر جبال صوبا وأبو غوش، وحيال ذلك أصدر اللنبي القائد الإنجليزي أوامره بإيقاف الهجوم على القدس والوقوف عند خط قرية صوبا وقرية العنب وبيت سوريك، حتى يجمع قواته من جديد وتصله إمدادات جديدة.

دخلت القوات البريطانية صوبا والقسطل أبو غوش بتاريخ ٢٠-١٩١٧/١١/٢١م بقيادة اللنبي، بعد معارك دامية متقدماً من بيت عمواس، وقد شارك أبناء صوبا في المقاومة جنباً إلى جنب مع أبناء القرى المحيطة بهم، ومع أبناء فلسطين عموماً، واستشهد عدداً منهم.

بعد أن احتلت القوات البريطانية مدينة القدس وباقي فلسطين، قامت سلطات الانتداب بجمع الأسلحة من الأهالي، ثم فرضت الضرائب على المحاصيل الزراعية، كما سهلوا هجرة اليهود إلى فلسطين، مما أدى إلى قيام الاحتجاجات والمصادمات مع الإنجليز واليهود، وأدى إلى تدهور الوضع الاقتصادي للبلاد في السنوات ما بين ١٩٢١-١٩٢٩م.

اصطدم أهالي قرية صوبا في هذه المواجهات مع القوات البريطانية واليهود قرب مستعمرة كريات عنيم، ففرض على القرى منع التجول عدة مرات ودخلت قوات الانتداب إليها بحجة ضبط الأمور.

في ثورة عام ١٩٣٦م التي عمّت جميع أنحاء فلسطين، أعلنت حالة الطوارئ، واستمر الإضراب ستة شهور، تحولت بعدها ثورة الاحتجاجات إلى ثورة علنية مسلحة اشتركت فيها طبقات الشعب كافة، وقد وقعت أشهر المعارك في باب الواد غربي صوبا، سقط خلالها العشرات من الثوار العرب والجنود الإنجليز واليهود، ومع ذلك لم تفلح القوات البريطانية في إخماد الثورة.

وكما شارك أبناء صوبا في الثورات عام ١٩٣٣م وعامي ١٩٣٦ و ١٩٣٧م، فقد قاوموا عملية بيع الأراضي وانتقالها إلى اليهود أيضاً، ولم يذكر أن أحداً من أهالي صوبا باع أرضه ليهودي، أو لغير أبناء القرية، والوحيد الذي استطاع شراء قطعة أرض واحدة من أراضي صوبا بسبب فقر صاحبها هو عبد الفتاح درويش من قرية المالحة، ولم يستطع غيره الحصول على أي شبر آخر من أراضي صوبا، كما يروي كبار السن من أهالي القرية.

أما الأراضي التي بيعت للدير فهي أرض اللطرون في العهد العثماني، وقد سبق الحديث عن الخديعة التي تمت بواسطتها سلب هذه القطعة.

في العهد البريطاني، تذكر التقارير أنه كان من أبناء صوبا الكشافة والثوار، وفي عام ١٩٣٦م تم اعتقال العديد منهم بأمر من القائد فايز بيك الإدريسي في عهد الحكم البريطاني، وسجنوا في بيت لحم وأريحا وصرفند، ومن الذين تم اعتقالهم:

ذيب نافع الفقيه، مصطفى عمر، ومحمد صالح نصر الله، وقد تم نفيهم إلى أريحا ثم إلى رام الله.

نصري عبد الرحمن، محمود عبد القادر، وطه محمود طه، تم نفيهم إلى صرفند.

عبد الله شحاده، إبراهيم شحاده حمدان، سعيد صالح المصري، وجبران خليل جبران، نفوا إلى بيت لحم.

كما أصيب كل من: إبراهيم عبد الله شحاده ومنصور عودة ومحمد عبد الجليل بشظايا القنابل أثناء غارة للطيران الإنجليزي على الثوار في بني نعيم – قضاء الخليل - عام ١٩٣٦م.

وفي نفس العام أعتقل نمر عبد الرحمن لحيازته على بندقية وسجن خمسة أعوام في سجن عتليت، ثم اكمل مدة سجنه في سجن نور شمس حتى عام ١٩٤١م.

في عام ١٩٣٧م تم اعتقال محمد مصلح علي صالح، وقد توفي على أثر التعذيب.

وقد أعدم بعضهم لوجود بندقية خرطوش في بيته، وسُجن البعض الآخر لوجود بضع رصاصات فارغة في حوش بيته، ومنهم من نُسف بيته أو نُفي إلى قرى مجاورة مثل قرية العمور، ومنهم من حُكم مؤبد، والكثير منهم جُرح في معارك الثوار.

كانت المقاومة على شكل نجدات للقرى المحيطة بقرية صوبا، فكان أهل صوبا يتعاونون مع أهالي عين كارم ودير ياسين وبيت نقوبا والقسطل وصطاف ودير عمرو وقرية العمور أو خربة اللوز لصد أي هجوم يقع على هذه القرى.. وفي عام ١٩٣٧م شارك عدد من رجالات صوبا مع عبد القادر الحسيني في هجوم على قافلة يهودية.

بعد مقتل خمسة من اليهود بالقرب من قرية صوبا، قامت القوات البريطانية بتطويق القرية، وأجرت فيها تفتيشاً دقيقاً واعتقلت عدداً من أبنائها، وقد أوردت جريدة الدفاع الصادرة صباح يوم ١٩٣٧/١١/١٤م على إحدى صفحاتها حول هذا الموضوع جاء فيه:

(ذهبت قوة من الجند البريطاني من عشرين سيارة كبيرة إلى قرية صوبا وأجرت فيها تفتيشاً دقيقاً، لكنها لم تعثر فيها على شيء، وقد اعتقلت كل من السادة: يونس عبد العزيز، ذيب نافع، محمد سليمان، ذيب علي صباح، عبد الله إسماعيل، احمد علي إسماعيل، الحاج علي عليان ومحمد الأعرج.

وصوبا واقعة على مسافة قريبة من المكان الذي قتل فيه اليهود الخمسة).

مع ذلك لم تتوقف الثورة، بل اشتدت واتسعت، فتسابق أبناء القرى إلى البذل والفداء فى عام ١٩٣٩م رغم تدمير البيوت والمباني والمخازن في القرى والمدن ومنع التجول.

ولأن موقع صوبا استراتيجي ومهم، ولمعرفة الثوار بشعاب وهضاب المنطقة، فقد أصبحت صوبا مركزاً مهماً لتجمع الثوار، ينطلقون منها لتنفيذ عملياتهم ثم الانسحاب إليها، مما دفع القوات البريطانية لاعتقال معظم رجال قرية صوبا ووضعهم في سجن القشلة.

في تلك الفترة شُكّلت لجنة مقاطعة من أبناء قرية صوبا تدعو إلى مقاطعة التعامل مع اليهود أو العمل معهم أو تزويدهم بالمواد التموينية، ومن مهماتها أيضاً مراقبة الطرق المؤدية إلى المستعمرات اليهودية، كما لديهم أوامر بمعاقبة كل من يمسك متلبساً بمساعدة اليهود وتسليمه إلى قيادة الثورة، وكان لهذه اللجنة الأثر الكبير في محاصرة عدد من المستعمرات القريبة وحرمانها من التعامل مع العرب.

داهمت قوات الانتداب البريطاني قرية صوبا عدة مرات بحجة التفتيش عن الثوار والسلاح، وكانت تجمع الرجال في منطقة مكشوفة من أراضي القرية وتحاصرهم بالأسلاك الشائكة وبرجال الجيش والبوليس عدة أيام وليالي، وقد أبقتهم في إحدى المداهمات تحت الحصار مدة تزيد عن الأسبوع في العراء تحت وهج الشمس الحارقة نهاراً والبرد القارص ليلاً، بحجة استجوابهم والبحث عن السلاح وعن الثوار، ومع ذلك لم تفلح في إمساك أي ثائر أو أي قطعة سلاح فيها.

وفي مداهمات الجنود الإنجليز للقرية كانوا يستعملون معهم أساليب عديدة كالتخويف والضرب والتهديد، ويخلطون المواد التموينية بعضها ببعض كالسكر بالطحين والأرز بالقمح والشعير والذرة وغيرها، ويصبون عليها الزيت والكاز انتقاماً من أهل القرية، ويعيثون في البيوت من خراب ودمار وتكسير ونشر الخوف بين الأطفال والنساء، ومع ذلك كان أهل القرية

حريصين على عدم ترك أي شيء داخل بيوتهم يعاقب عليه القانون، حتى السكاكين كان لها مخابئ خاصة، ولم تفلح القوات البريطانية باعترافات منهم على السلاح أو الثوار.

ويذكر الأجداد والآباء أن الحامية البريطانية جمعت رجال أهل قرية صوبا عام ١٩٤٠م، وسجنوهم في مكان تحت لظى الشمس في ساحة البلد لمدة أسبوع كامل، ولم يتركوا في القرية غير النساء والأطفال، ثم قاموا بتفتيش البيوت بحثاً عن الأسلحة بيتاً بيتاً، وهم يستجوبون النساء والأطفال.. وكما شارك الرجال في المقاومة، فقد شاركت النساء أيضاً، فكن يخبئن قطع الأسلحة في الجدران والخوابي وفي الطوابين أحياناً حتى لا تقع بأيدي الجنود.

في تلك الفترة تم اعتقال كل من: يوسف حسن، محمد صافي، حسن مصلح، إسماعيل علي جبران، سعيد الشيبه، ذيب نافع عوض الله الفقيه، محمد مصلح علي صالح، محمد صالح نصر الله، طه محمود طه، مصطفى عمر، سعيد صالح المصري، عبد الله شحاده حمدان، جبران خليل جبران، نمر عبد الرحمن، محمد صالح علي، احمد محمد عصفور، إبراهيم شحاده حمدان، محمد صافي، وغيرهم.. كما تعرض بعض الرجال للضرب والنفي ممن وُجد عندهم طلقات بندقية صيد فارغة.. كما شُنق أحد سكان القرية في مدينة القدس كعقاب له لحمله بندقية، وذلك في الكيلو متر الثاني عشر، إضافة لثلاثة أشخاص من سكان القرية أيضاً صدر عليهم الحكم بالسجن خمس سنوات لأنه ضبط بحوزتهم سلاح.. لكن الرجال لم ييأسوا ولم يستسلموا، فكانوا يبيعون أغراضهم وحاجياتهم الثمينة ليشتروا بارودة "عصملية" قديمة ومشط فشك.. ويذكر كبار السن أن الجنود حطموا أبواب البيوت، واقتادوا الرجال إلى السجن حيث تم اعتقالهم في سجن "كمب علار" جنوب سكة الحديد.

وقد توفي بعض الرجال نتيجة الضرب المبرح، ولم يعش طويلاً بعد خروجه من السجن، ومنهم الشهيد محمد مصلح علي صالح رمان، كما شنق الشهيد أحمد محمد أحمد عميش لضبطه يحمل بندقية.. وإجمالاً لم ينج أحد من أهل القرية من الاعتقال إلا ما ندر.

في هجوم آخر على اليشار تم تدمير مصنع للرخام شرق صوبا، أستشهد على أثره عمر علي أحمد مصطفى، كما جرح ذيب علي صباح.

في عامي ١٩٤٧م و ١٩٤٨م اشترك عدد كبير من أهالي صوبا في الدفاع عنها، خاصة عندما أعلنت بريطانيا عن قرب نهاية الانتداب، فهرب من كان يخدم في معسكرات الجيش البريطاني، والتحق بالثوار بعد أن أخذ سلاحه، فكان بعضهم يشكل مجموعات من أربعة إلى خمسة رجال، يهاجمون الجيش البريطاني والقوافل اليهودية على شكل كمائن متقدمة.

ومع أنه لم يكن بحوزتهم غير بنادق قديمة "سواري إنجليزي وألماني وفرنساوي" التي كان يرتد فيها الرصاص إلى الخلف، أو يتفجر بداخلها فيصيب من حوله بجروح، وبعض المسدسات القديمة، أو بنادق الخرطوش التي تُعبأ وتُدك بسيخ حديد، إلا أن واحداً منهم لم يتهاون عن المقاومة، ولم يتقاعس رغم قلة عدد السكان وضآلة السلاح.

كان من نتائج الحرب غير المتكافئة بين الطرفين، أن نزح خلال العامين الأخيرين ١٩٤٧م و ١٩٤٨م عدد من أهالي صوبا إلى "عين رافا"، كما لجأ عدد آخر إلى العيزرية وأبو ديس، وبقي حماة صوبا والمدافعون عنها مع عدد كبير من الأهالي في قرية صوبا حتى سقوطها. "١"

****

صوبا وحرب عام ١٩٤٨م

معركة القسطل :

القسطل مرتفع استراتيجي، كان الرومان يطلقون عليه أسم "كاس تيلوم" ولا تزال فيه بقايا قلعة صليبية.

تمثلت أهم الهجمات العربية غرب بيت المقدس على القوافل لغرض قطع الطريق البري على اليهود، وإيقاف خط الإمداد الذي يربط القدس بـتل أبيب، وإجاعة المستوطنات اليهودية البعيدة في النقب والجليل.

ولعل معارك القوافل التي دارت خلال هذه الفترة عند مضيق باب الواد حيث يتصل طريق القدس بالسهل، وعلى الطريق المؤدية إلى النقب والخليل هي أشد المعارك التي دارت طوال فترة الحرب من حيث القسوة والوحشية.

وفي تلك الفترة امتدت المعارك فوق الهضاب باتجاه القدس، وتقدمت وحدات من "الهاجانا" أثناء الليل لفتح الطريق المؤدي إلى قرية صوبا بالقوة، فحدثت اشتباكات شديدة.

في الثالث من نيسان شنت قوات "البالماخ" أول هجوم لها على القسطل وصوبا، وتمكنت من احتلال القسطل والمحافظة على مواقعها، ولم يكن في القسطل سوى عدد ضئيل من المناضلين لا يزيد عددهم عن خمسين مناضلاً، أما في صوبا فقد صُدّ هجومهم وأوقف.

من جهة الغرب، تقدمت وحدة من الجيش الميداني، واحتلت قريتي خلده ودير محيسن العربيتين اللتين تقعان على بعد ميل تقريباً من اللطرون، واستكملت احتلالها في السادس من شهر نيسان.

ثارت ثائرة العرب بسقوط القسطل، فتجمع المناضلون وبدأوا هجومهم المعاكس الأول لاسترجاع القسطل في الرابع من نيسان، فاحتلوا التلال الواقعة بين القسطل وعين كارم بعد قتال عنيف.

قاد عبد القادر الحسيني قائد منطقة القدس العربية الهجوم بنفسه، وقد استقدم رجاله من مناطق بعيدة ، فوضع "إبراهيم أبو دية" في القلب من الناحية القبلية من القسطل، ووضع "حافظ بركات" في الميمنة من الناحية الشرقية، و"هارون بن جازي" مع فريق من البدو مع أبناء صوبا في الميسرة، أي في أراضي صوبا، وبقي عبد القادر مع "عبد الله العمري وعلي الموسوس وثلاثة آخرون" من شباب بيت المقدس في موضع القيادة، وانضم إليه رجال القرى المحيطة بالقدس، وهي تطبل وترقص وتهلل فرحاً أثناء توجههم للقسطل.

في الخامس من نيسان نسف العرب الجسر القريب من قالونيا، لمنع وصول الإمدادات والتعزيزات لليهود في القسطل.

في السادس من نيسان ١٩٤٨م هاجم الثوار مع أبناء صوبا "بقيادة كل من كامل عريقات وإبراهيم أبو دية وحافظ بركات" محاجر اليشار التابعة لليهود في أراضي صوبا، وأوقعوا باليهود إصابات كثيرة بين قتيل وجريح وخسائر كبيرة بالممتلكات، فقامت طائرة يهودية بصد الهجوم وقصف مواقع الثوار الذين تجمعوا مع المناضلين من أبناء صوبا حول القسطل.

في السابع من نيسان ١٩٤٨م قام نحو ٦٠٠ عربي بالهجوم على القسطل – دخلت المعركة يومها الخامس – وحاول العرب قبل الفجر اقتحام القسطل، لكنهم ردوا على أعقابهم، وأصبحت القسطل كتلة من الركام، تتداخل فيها التحصينات والمدافع الرشاشة في كل الأماكن.

في الساعة الحادية عشر من مساء السابع من نيسان، شن المناضلون هجوماً آخر ونجحوا هذه المرة، فدخلوا القسطل مهللين مكبرين، ورفعوا العلم العربي على أعلى بناية فيها، إلا أن سرور المناضلين باسترجاع القسطل انقلب إلى ألم عندما رأوا عبد القادر الحسيني مقتولاً وملقى على الأرض عند بيوت قرية القسطل من طرفها الشرقي، فدار قتال عنيف بين الطرفين دون نتيجة واضحة، ولحق المناضلون باليهود الفارين من المعركة وقتلوا منهم عدداً ينوف الخمسين قتيلاً.. وفي الساعة الثانية والنصف من صباح يوم ٨ نيسان ١٩٤٨م، سقطت القسطل بعد تناوب السيطرة عليها ثلاث أو أربع مرات حيث تم الاشتباك بالسلاح الأبيض، ومع أن القتال استمر حتى الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم الخميس الثامن من نيسان ١٩٤٨م، إلا أن القسطل بقيت في أيدي اليهود. "٢"

استشهد عبد القادر الحسيني في معركة القسطل، ولم يعلنوا عن وفاته، لكن المناضلين عادوا وحطاتهم فوق رؤوسهم بدون عقله، دليلاً على الحزن والنكسة التي ألمت بهم.

نُقل الشهيد عبد القادر الحسيني من القسطل إلى قرية صوبا، ومنها إلى مثواه الأخير في القدس.

وفي حكاية قرية – إعداد المؤسسة العربية للدراسات والنشر، مركز يافا للتوثيق والخدمات الإعلامية، قرى فلسطينية مدمرة عام ٤٨ في منطقة القدس، ص ٣٦ - يقول الكاتب:

(اطلعت على سجل الأعمال التي قام بها "البالماخ" يوم أمس لفتح الطريق أمام قافلة المواد الغذائية، وأخذت منه هذه المقتطفات:

الساعة ٢.٣٨ جميع تحصينات وجسور العدو مستهدفة في أيدينا.

الساعة ٤.٠ وصلت القافلة على "كيريات عنافيم" وقاوم ١٥٠ مسلحاً عربياً في دير محيسن، وانضم إليهم أشخاص من أبو شوشه، واستمرت المعركة ساعتين، احتللنا بعدها هذه القرية.

الساعة ٦.٠ أقام العرب خمسة سدود على الطريق قرب "قالوينا"، وحفروا ثلاث خنادق على عرض الطريق.

الساعة ٧.١٥ اضطررنا تحت ضغط العدو إلى الانسحاب من مقالع الحجارة في صوبا، وتدور معركة شديدة عند القسطل.

الساعة ٨.٥٠ اصطدمت القافلة بالسدود المقامة على الطريق، واشتبكت آلياتنا المصفحة مع كمين للعدو.

الساعة٩.٣٠ اخترقت المجموعة المتقدمة السدود وأقامت الجسور على الخنادق.

الساعة ١٠.١٠ وصلت القافلة إلى القدس، لم تحدث إصابات.

الساعة ١٤.٠ العرب يهاجمون بتعزيزات كبيرة، انسحبت قواتنا من جميع التحصينات المحيطة بالقسطل، لكنها ظلت محتفظة بهذه القرية، وقامت قوات عربية كبيرة تساندها خمس عربات مصفحة بمهاجمة قواتنا التي تحتل دير محيسن، وثبتنا في مواقعنا ثم قمنا بهجوم معاكس، وانسحب العرب.

الساعة ١٤.٥٠ وجه الضباط البريطانيون إلينا أمراً بمغادرة دير محيسن، وابلغنا البريطانيين بالتزامنا بأمرهم لتجنب الاصطدام معهم، ولكن إذا عاد العرب فسوف نهاجم من جديد.

وفي اليوم السابع من نيسان إبريل ١٩٤٨م صد أهل صوبا اليهود في موقع مقالع الحجارة "الفبركه واليشار" حيث اضطر اليهود للانسحاب من الموقع، والتحق ثوار صوبا بالمدافعين عن القسطل.

فجر يوم ١٩٤٨/٤/٨م، شدّد العرب هجومهم على القسطل، وأستدعي المئات من المقاتلين إلى المكان بقيادة عبد القادر الحسيني قائد المنطقة، واستمرت المعركة طوال تلك الليلة وخلال ساعات الصباح، وفي الساعة الرابعة صباحاً نجح العرب في احتلال عدة بيوت في طرف القرية الجنوبي الغربي، لكن عبد القادر الحسيني قتل، وسرت شائعة بين العرب في المناطق المجاورة بأن عبد القادر الحسيني قد أسر، فقام أكثر من ١٢٠٠ عربي بحماسة شديدة بهجوم شامل على القسطل، وكان هدفهم إخراج عبد القادر الحسيني من المكان ميتاً أو حياً، ووصل الهجوم إلى ذروته في ساعات الظهر، وانسحب المدافعون اليهود من القسطل بعد خسائر كبيرة، وسقطت القسطل بيد العرب، لكن هيئة أركان "نحشون" أصدرت أمراً باستعادة القسطل في الليلة نفسها والاحتفاظ بها بأي ثمن، وفي الليلة السابقة ليوم ١٩٤٨/٤/٩م، انطلقت وحدة "بالماخ" لتنفيذ المهمة، ودهشت عندما وجدت القسطل خالية من الرجال، لقد أستدعي المقاتلون العرب للمشاركة في جنازة قائدهم القتيل، وعادت القسطل ثانية وإلى الأبد إلي أيدي اليهود). "٣"

في ليلة ١٩٤٨/٤/٩م هجم اليهود على دير ياسين وذبحوا من فيها، ويقدر عددهم بـ٣٠٠ شخص.

يقول أحد **معاصري الأحداث** أن الكثير من المهاجمين العرب للقسطل، ذهبوا مع جثمان القائد ليشاركوا في توديعه، ولم يبق فيها إلا قرابة أربعين مقاتلاً، يقودهم بهجت أبو غربية ومحمد عادل النجار، وبقي عبد الحليم الشلف في صوبا بجوار القسطل، وحين اشتد الهجوم اليهودي في الساعات الأولى من اليوم التاسع من أبريل نيسان، استنجد المقاتلون بإخوانهم، فتحركت جماعة قوامها خمسة وسبعون مقاتلا بعضهم من جيش الإنقاذ، خليط من السوريين والعراقيين، وقضوا

ليلتهم في عين كارم، ولم يصلوا القسطل، وفي صباح التاسع من إبريل نيسان ١٩٤٨م سقطت القسطل بيد اليهود، ودمروا كل ما فيها، بيوتها حصونها ومسجدها. "٤"

لقد حارب العرب بمهارة وجرأة بالغتين تحت قيادة عبد القادر الحسيني الذي كان بارعاً في تكتيك حرب العصابات، ولم يتمكن "البالماخ" من المحافظة على المواقع التي احتلوها إلا بعد وفاته. "٥"

أدى سقوط القسطل إلى قطع طريق تل أبيب – القدس مرة أخرى، وهذا ما سمح للقوات اليهودية بالتقدم نحو الشمال، حيث لم يجدوا إلا القليل من المقاومة، وفي ١١ نيسان استولوا على قالونيا، على أثر هجوم ليلي، وسقطت بعدها لفتا في أيدي الهاجانا، وفي تلك الليلة تم احتلال بيت محسير والأراضي المرتفعة المحيطة بها وتلتها باب الواد.

وشُنّ هجوم على ساريس في ١٦ نيسان أدى إلى تهديم هذه القرية، لكن الهجمات المتكررة على صوبا باءت بالفشل.

وعلى أثر مقتل الحسيني، راح تنظيم جيش الإنقاذ العربي بجوار القدس يبدو أنه في تدهور مستمر، وبغياب القيادة القوية راح المقاتلون العرب يعودون تدريجياً إلى قراهم، وتلاشت المقاومة العربية.

وقد خرج بعض أهالي صوبا من القرية بعد أن احتل اليهود القسطل، وفي الليالي التالية دب الفزع بينهم، خاصة عندما توالت أخبار المذابح عن أهالي القرى الفلسطينية التي احتلها اليهود، ومذبحة دير ياسين كانت القشة التي قصمت ظهر المقاومة، حيث ترك الأهالي بيوتهم، واخذوا ينامون في المغر "الكهوف" وفي الكروم ريثما يستعيد الثوار القسطل.

في السابع عشر من شهر إبريل نيسان بدأ العرب هجومهم المعاكس الذي استهدف باب الواد لاستعادة الأرض التي خسروها، لكن الرجال لم يتمكنوا من استعادتها، فرحل عدد من أهالي صوبا إلى عين رافا طلباً للحماية، وخوفاً من تدمير القرية واحتلالها من قبل اليهود، حيث أصبحت هدفاً لهم بعد القسطل بعد أن كثفوا هجماتهم عليها، رحل بعض الأهالي إلى العيزرية وأبوديس، لكن البقية عادوا إلى القرية للدفاع عنها، وتحصنوا بداخلها، (ومع هذه القلة من المناضلين فقد صمدت قرية صوبا ثلاثة أشهر في مقاومة العدو وصد هجماته المتكررة)."٦"

شكل المناضلون من أهل صوبا خلال هذه الفترة مع أهالي خربة اللوز وعين كارم وصطاف فصائل مقاومة مسلحة، ولم تسقط صوبا إلا بعد أن دُمّرت تدميراً كاملاً.

****

سقوط صوبا

بعد سقوط القسطل في يد اليهود في التاسع من نيسان عام ١٩٤٨م، أصبحت قرية صوبا هدفهم التالي للسيطرة عليها وتأمين طريق القدس – تل أبيب، وبدلاً من تحصين قرية صوبا، انسحب الثوار ولم يبق فيها إلا عدد قليل بقيادة عبد الحليم الشلف.

أرسل "عبد الله التل" قبيل الهجوم على صوبا مفرزة مؤلفة من أربعين مناضلاً، بقيادة الملازم العراقي "عبد الأمير ناجي" لمساعدة أبناء القرية والمناضلين العرب المعينين من قبل المجاهد "أحمد حلمي باشا". "٧"

بدأ الهجوم على قرية صوبا من قرية أبو غوش، وتساقطت قذائف المدفعية على البيوت من قبانية الخمسة، ثم تقدم المشاة نحو القرية، ولصعوبة الوصول إلى القرية من الجهة الشمالية لارتفاعها، وصمود المناضلين، صمدت القرية وصدت الهجوم أربع مرات متتالية.

في الهجوم الثالث استشهد محمد عبد القادر عبد الله شرقي صوبا.

في الثاني عشر من تموز وطيلة ليلة الثالث عشر منه، راحت القوات اليهودية تقصف القرية بالمدفعية الثقيلة بعيدة المدى، وبمدافع المورتر من مستعمرة كريات عنافيم والقسطل، مما دفع بالمناضلين الانسحاب من القرية، لعدم قدرتهم الرد بسلاح يقاوم مدفعية العدو.

تحت شدة القصف اضطر ما تبقّى من الأهالي للرحيل عن القرية، واحتموا في المغر والكهوف في الجهة الجنوبية للقرية، بينما اتجه بعضهم الآخر إلى قرية صطاف أو عين رافا.

وفي ١٩٤٨/٧/١٣م سقطت قرية صوبا في يد اليهود، وسقطت بعدها عشرات القرى.

****

عملية داني :

الجزء الأول من العملية في القطاع الشرقي:

وضع دور مهم في إطار هذه المرحلة للواء "هارئيل" الذي نشط في هذه المرحلة منفرداً في القطاع الشرقي لعملية "داني".

وكانت عملياته حتى الآن ما يلي: هجوم "قامت به الكتيبة ٦" على صوبا "تسوفا" في ليل ١٢-١٣ تموز يوليو لإزالة الخطر الذي كان يهدد القدس من ناحية الجنوب، وتوسيع الممر في اتجاه الجنوب.

كانت صوبا واقعة على رأس مرتفع ذي جوانب حادة الانحدار، وقد فشل هجومان شنا عليها في منتصف نيسان – ابريل في أطار عملية "هارئيل"،وفي هذه المرة هاجمتها سريتان بمساندة المدفعية ومدافع الهاون واحتلتاها.

وفي اليوم نفسه احتلت الكتيبة الرابعة التابعة للواء هارئيل أيضاً "صرعه" تمهيداً للسيطرة على المناطق الواقعة في ضواحي هارطوف، لكن هارطوف نفسها كانت بيد قوات غير نظامية خاضعة للمصريين. "٨"

كانت عملية داني أكبر عملية بادر جيش الدفاع الإسرائيلي إلى القيام بها حتى ذلك الوقت، وكانت الإنجازات الفعلية للعلمية فتح طريق بديل إلى القدس "إشوع – كسلة- صوبا"، وتم الاستيلاء على جزء من خط سكة الحديد إلى القدس. "٩"

في ليلة ١٩٤٨/٧/١٣م عادت المدفعية، وبدأت تدك قرية صوبا من المساء حتى منتصف الليل، وتقدمت المشاة من جهة القسطل ومن جهة أبو غوش، الشرق والشمال، ودخلوا صوبا عن طريق سري شمال القرية، ولم يكن في صوبا أحد من أهلها، حيث غادرها الجميع، وبقي اليهود بداخلها ينهبون ويدمرون بيوتها، وتسويتها بالأرض، ولم يبق منها غير أثر، كما دمروا قرى قالونيا والقسطل وبيت سوريك.

****

في مذكراته، **يقول عبد الله التل**: (بأن قرى صوبا – عين كارم – المالحة تشكل خطاً قوياً يهدد الممر الذي كان يعمل اليهود على تأمينه ما بين تل أبيب والقدس، وسقطت قرية صوبا في ١٩٤٨/٧/١٣م، ولم يكن يدافع عنها سوى مفرزة واحدة من المناضلين التابعين للحاكم العسكري في القدس المجاهد أحمد حلمي باشا والذي كان يقودهم الملازم العراقي المناضل عبد الأمير ناجي، وبعد سقوط صوبا استولى اليهود على عين كارم والمالحة). "١٠"

ويقول **وليد الخالدي** في كتابه "كي لا ننسى" عن احتلال قرية صوبا: (استنادا إلى صحيفة "فلسطين" هوجمت صوبا في ٣ نيسان/ أبريل ١٩٤٨ بعد هجوم وقع على قرية القسطل المجاورة. وعلى الرغم من الدعم الجوي رُدّت قوات الهاغاناه على أعقابها، وظلت القرية خارج قبضة الاحتلال ثلاثة أشهر. كما جرت محاولتان أخريان للاستيلاء عليها في أواسط نيسان/ أبريل، في أثناء المعارك التي دارت حول اللطرون, لكنهما باءتا بالفشل. ثم إنها وقعت أخيرا في قبضة لواء هرئيل بتاريخ ١٢-١٣ تموز/يوليو ١٩٤٨، في سياق عملية داني "أنظر أبو الفضل، قضاء الرملة". ويذكر "تاريخ حرب الاستقلال" أن القوات الإسرائيلية استخدمت سريّتين مدعومتين بمدفعية الميدان والهاون للاستيلاء على القرية، التي كانت تقع على "رأس مرتفع ذي جوانب حادة الانحدار". وتقول هذه الرواية إن القرية احتُلّت "لإزالة الخطر الذي كان يهدد طريق القدس من ناحية الجنوب، وتوسيع الممر [ممر القدس] في اتجاه الجنوب". وجاء في تقرير لوكالة إسوشييتد برس أن "مغاوير البلماخ استولوا على صوبا من دون قتال بعد القصف الذي أخرج المدافعين العرب من مرتفع مشرف على الطريق الحيوي الموصل إلى تل أبيب". ويقول المؤرخ الإسرائيلي بني موريس إن الكثيرين من سكان صوبا كانوا غادروها قبلاً، وإن من بقي فيها من السكان فرّ جراء القصف، أو طُرد. وروت "صحيفة نيويورك تايمز"، نقلا عن ناطق عسكري إسرائيلي أن الهجوم على القرية كان من دون إراقة دماء، وأن الاستيلاء عليها قضى على الحلم العربي في قطع الطريق إلى تل أبيب. وقد جاء احتلال القرية عقب الاستيلاء على اللد والرملة وطرد سكانها) "١١".

ويقول **ذيب نافع الفقيه** عام ١٩٨٠م(١٩٠٠-١٩٨٢م) وهو يتذكر صوبا والرحيل عنها، وتتراءى له بقايا صور في ذاكرته:

(غادر معظم سكان صوبا القرية أثناء المعارك التي دارت حول القسطل في نيسان، وتبعثر حماتها على التلال وبين أشجار الزيتون وفي المغر والمحاجر، لكن القرية بدت كبركان يثور.. لقد رأينا وميض مدافع اليهود في الليل وهي تدك صوبا، وسمعنا الطلقات وشاهدناها وهي تمر فوق رؤوسنا.

كانوا يطلقون النار عشوائياً في جميع الاتجاهات، وطوال الوقت كان وابل قذائف المدافع الرشاشة من المصفحات يتساقط على القرية بغزارة، وقد أحصى الرجال أكثر من ٨٣ قنبلة كبيرة وقعت على صوبا في أيام معدودة، وفي ليلة واحدة دكوا صوبا بأكثر من ٢٦ قذيفة هاون،

كما كانت الطائرات تغير على البلدة بين وقت وآخر تُدمّر وتقتل وتصيب الأطفال، وكانت الانفجارات تمزق البيوت فوق الهضبة.

كان العرب رغم صمودهم مذعورين من حكايات الذبح التي يقوم بها اليهود في القرى التي يحتلوها، وبعد أن قتل عبد القادر الحسيني لم يبق لدينا حيلة للمقاومة، انهار الثوار وقُصمت ظهورهم، ومع ذلك قاومت صوبا عدة أشهر، ولم يستطع اليهود احتلالها، رغم أنهم كانوا يطلقون النار بانتظام وبكل أنواع الأسلحة وبتكتيك، والعرب يردون بلا نظام بأسلحتهم الخفيفة التي كانت بحوزتهم، لكن عندما اشتد القصف، وغادر معظم سكان القرية صوبا استطاع اليهود احتلالها ودخولها ليلة ١٩٤٨/٧/١٣م بعد أن انهارت المقاومة التي كانت ضعيفة منذ البداية.

رحل الأهالي عن صوبا حفاظاً على حياتهم، والبعض ونحن منهم لم نبتعد عن القرية كثيراً، والتجأنا إلى مغارة كبيرة في أراضي البلدة بعيداً عن إطلاق النار، وانتظرنا ريثما تهدأ الأمور.

ذات ليلة راحت المدفعية تقصف الكهوف والمغاور التي كنا فيها، رحل البعض أثناء الليل مع دوابه، والبعض الآخر حمل فراشه وأمتعته والتجأ إلى رأس أبو عمار، وآخرون نزلوا إلى عين رافا.. ومع هذا ظل أهالي القرية يعودون متسللين إلى صوبا، وإلى القرى المجاورة لكي يحضروا بعض حاجاتهم من الأرض والبيوت ليطعموا أولادهم، وكان اليهود إذا ضبطوا متسللاً قتلوه.

لم يكن أحد يدري ما الذي سيحدث، كانوا يقولون إن الذي يبقى في البلد تحت سيطرة اليهود يعتبر خائناً، وكانت الناس تخاف من بعضها البعض، والوضع محرجاً للغاية.

اليهود نهبوا كل ما طالته أيديهم في القرية، سرقوا أمتعة الناس وقطعاناً كاملة من الماشية.

في الأيام اللاحقة عاد بعض الرجال مخاطرين بحياتهم لأخذ حاجاتهم الضرورية من منازلهم، فوجدوا القرية مهدمة عن بكرة أبيها، ولم يبق فيها يهودي واحد، بعد أن زرعوا فيها الألغام، لكن خوفنا من عودتهم ثانية دفعنا للرحيل والابتعاد عنها، خاصة وان الأخبار كانت تتوارد عن المذابح الفظيعة التي حدثت في القرى المجاورة التي احتلها اليهود.

لم يكن مع أهل صوبا سلاح يُذكر، الناس كانت فقيرة، ثلاث بنادق قديمة عند كل عائلة، وعشرين فشكة لكل حمولة، كانت المقاومة بلا سلاح يذكر، كمن يرجم اليوم الدبابات المصفحة بالحجارة، وكان اليهود في ذلك الوقت عصابات مدربة، ومع ذلك كنا نصمد أمامهم ونقاتلهم وهم يطلقون النار علينا برشاشاتهم.

كان الرحيل يشبه يوم القيامة، لا أحد يشاور أحد فيما يفعله، واليهود يطاردون الجميع برشاشاتهم ومدافعهم بين الجبال، كانت نقطة التجمع لأهالي صوبا في قرية راس أبو عمار، مكثنا هناك حوالي عشرين يوماً، بعد أن أقمنا في خربة اللوز ثلاثة أيام، ولم يكن في القرية غيرنا، كان أهالي القرى المحيطة بقرية صوبا قد غادروا قراهم قبلنا، ثم اتجهنا إلى حوسان، ومكثنا هناك حوالي شهرين، ومنها إلى العيزرية حيث سبقنا بعض الأقارب إليها.

بعد ذلك توجهنا إلى أريحا وأقمنا في عقبة جبر حوالي عشرين يوماً، ومنها إلى السلط في شرق الأردن، حيث أقمنا فترة قصيرة، وقد بقي بعض أهالي صوبا في السلط، بينما رحلنا نحن وبعض الأقارب إلى القويسمة شرق عمان، وأقمنا هناك ستة أشهر، ولم يكن لنا مأوى إلا المغر.. في الشتاء داهمنا البرد القارس، وأغلق الثلج علينا أبواب المغر، مما دفعنا للرحيل إلى الكرامة.. وفي صيف عام ١٩٤٩م انتقلنا إلى السخنة بسبب حرارة الجو في الأغوار، أقمنا هناك عدة أشهر، لكن سيول الشتاء جرفت المخيم الذي كنا نقيم فيه، مما دعانا للعودة إلى الكرامة ثانية.. في الكرامة أقمنا حتى صيف عام ١٩٥٤م، انتقلنا بعدها إلى عمان، وأقمنا في طريق ناعور، ثم رحل بعض الأقارب إلى مخيم الوحدات، وتفرق شملنا في البلاد العربية).

يضيف ذيب نافع وهو يزفر كزفير الأموات ويمسح دمعة قفزت من عينيه وسالت على وجنتيه: (كأهل سبأ بعد انهيار سد مأرب، تفرق الأهل والأحباب في بقاع الأرض، وما كان أحد يتصور أن الرحيل عن صوبا سيطول ويمتد إلى عشرات السنين، لكنه طال رغم الأمل الذي زرعه الآباء في الأحفاد.

الأمل في وجه الله، الأولاد لم يعودوا يعرفون قيمة الأرض التي تربينا عليها ورويناها من عرقنا ومن دمائنا بعد أن تاهوا في مدن الشتات، ربما يأتي جيل من أنجالهم أو أحفادهم يعيد الحق ويعود إلى الوطن).

يصمت ذيب نافع ثانية، يمسح دمعة، ثم يرفع رأسه ويديه إلى السماء، ويبتهل إلى الله ويدعوه بأن لا يميته إلا على تراب فلسطين، وأن لا يدفن إلا في أرضها بعد أن يصلي في المسجد الأقصى.

وتشاركه زوجته صبحه علي حمد في الدعاء ثم تقول (انخلع الباب وتفرق الأحباب، يا ولداه، اصبح كل حي في دنيا، حتى الأخ ما عاد يشوف أخوه). "١٢"

تمر السنوات، ويستشهد الكثير من الأبناء في سبيل فلسطين، ويقضي الحاج ذيب نافع وزوجه، كما يستشهد ابنهما "علي" عام ١٩٧٢م في جنوب لبنان مع مجموعة من المقاتلين الفلسطينيين والعرب أثناء تصديهم للجنود الصهاينة أثر اعتداء سافر على الجنوب اللبناني، ويقضي المئات أمثالهم بعيداً عن الوطن وعلى حدوده دون أن يكحلوا أعينهم برؤيته، وعناق ترابه.

بسم الله الرحمن الرحيم (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، وما بدّلوا تبديلا) صدق الله العظيم.

(سورة الأحزاب الآية ٢٣)

****

كوكبة من شهداء صوبا

بسم الله الرحمن الرحيم {ولا تحسبن الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً، بل أحياء عند ربهم يرزقون} صدق الله العظيم. "سورة آل عمران الآية ١٦٩"

من شهداء صوبا الذين رووا ترابها بدمائهم، واستشهدوا على أرضها وفي سبيلها عام ١٩٤٨م:

١- الشهيد احمد محمد احمد إعميش. استشهد في وعر الملح بتاريخ ١٩٤٨/٦/٧م
٢- الشهيد يحيى محمد عبد القادر. استشهد في صوبا بتاريخ ١٩٤٨/٧/١٠م .
٣- الشهيد عمر على احمد صالح نصر الله. استشهد في وعر الملح بتاريخ ١٩٤٨/٤/٧م.
٤- الشهيد احمد محمد عبد الجليل. استشهد في وعر الملح بتاريخ ١٩٤٨/٦/٧م
٥- الشهيد محمد عبد القادر عبد الله. استشهد في وعر الملح بتاريخ ١٩٤٨/٧/١٧م.
٦- الشهيد طه محمود طه عميش .
٧- الشهيد عبد الرحيم عوده عليان. استشهد في وعر الملح بتاريخ ١٩٤٨/٦/٢٥م
٨- الشهيد عبد الله سليم عبد الله. استشهد في وادي اللوزية بتاريخ ١٩٤٨/٧/٢٩م
٩- الشهيد حسن محمد مصلح. استشهد في وادي اللوزية بتاريخ ١٩٤٨/٧/٢٩م
١٠- الشهيد ذيب علي صبّاح – أصيب بجروح أثر قذيفة عام ١٩٤٨م في القسطل، وبقي طريح الفراش إلى أن توفي في عمان أوائل عام ١٩٥٠م .
١١- الشهيد احمد محمد حمد .
١٢- الشهيد محمد يونس عبد العزيز. استشهد في أريحا بتاريخ ١٩٤٨/١/٦.
١٣- الشهيد إبراهيم إسماعيل عبد اللطيف .

****

١- وحدات البلماخ: عبارة عن دوريات مهمتها الدفاع عن المستعمرات المجاورة للقدس، وكانت معسكرة في قسم المستعمرات "رامات راحيل، كريات عنافيم، بيت معرفا"، وقد دفعت هذه الدوريات قرى معينة إلى التفاوض مع المستعمرات اليهودية القريبة منها من أجل عقد سلام، لكن هذه الاتفاقيات انهارت بعد امتداد سيطرة القوميين العرب على المنطقة بعد مجيء عبد القادر الحسيني.

٢- عملية "داني" التي سبق الحديث عنها، وهي أكبر عملية بادر الجيش الإسرائيلي إلى القيام بها حتى ذلك الوقت، وقد وضع دور مهم في إطار هذه المرحلة للواء "هارئيل" الذي نشط منفرداً في القطاع الشرقي لعملية داني، وقد قام بهجوم على صوبا في ليلة ١٢-١٣/٧/١٩٤٨م لإزالة الخطر الذي كان يهدد طريق القدس - تل أبيب من الناحية الجنوبية وتوسيع الممر في اتجاه الجنوب، وقد نجح في احتلال اللد والرملة وفتح طريق بديل إلى القدس "إشوع – كسلة – صوبا". "١٣"

في كتاب "أصدقاء يحكون عن جيمي" هناك وصف للقاء بين شاب من أرض إسرائيل وأفراد من "غاحل" في كتيبة تابعة للواء "هارئيل":

(.. قرأ جيمي في سجل الجنود أسماء الجدد، أسماء غريبة عجيبة تصلح لتكسير الأسنان، احترموهم واحترسوا منهم، كان يقول لقادة الجماعات، اظهروا تجاههم ثقة، ومع ذلك راقبوا جيداً، اظهروا بمظهر القادة، لكن تصرفوا معهم جيداً وبصورة رفاقية.

وكان أفراد "غاحل" يتهامسون بصدد جيمي إزاء الخارج كما لو أنه ليس قائداً على الإطلاق، يربت على ظهورنا، ويتجول بيننا ويحيا حياتنا، لكنه عملياً أكثر من ضابط في الجيش الأحمر، أو في الجيش البولندي.

وبعد فتح طريق بورما بدأ أفراد "غاحل" بالتسلل إلينا، وظهرت أسماء غريشا وياشكا وميشكا وما شابه ذلك، وكان بينهم من خدم سابقاً في الجيش الأحمر، وعلى أية حال عاشوا فترة ما في روسيا، وكان بينهم من شاركنا في احتلال تسوفا "صوبا".

وقتها بذل قائد المعركة زيزي من مواليد "غفعات هشلوشاه" ويجهل الأيدش، جهداً فائقاً، أشار إلى تسوفا "صوبا" وقال للمجندين في الخارج "داس تسوفا، منعمط" (هذه سوفا "صوبا" سنحتلها) وقبل أن يندفعوا صرخوا "زارودينو- زاستانيا – زا بن غوريونا" وأعقب ذلك شتائم روسية دسمة موجهة ضد العدو.

وكانوا "يدبروننا" نحن مواليد البلد، بالأيدش، وطبعاً لم يسلم القائد الذي لم يكن يعرف هذه اللغة من هزل الزمرة ولسعاتها.

وفي إحدى الليالي، خرج عدد من المتطوعين في الخارج ومعهم أكياس صغيرة إلى البساتين المجاورة، وملأوها بالخوخ والمشمش الخ.. ثم انطلقوا بأحمالهم الثمينة هذه إلى القدس، فباعوها

هناك، وكان معظمهم يتمتع بحس عملي متطور، لقد كانوا مهتمين بعدهم، ولا عجب في أن كثير منهم بعد المصائب والتشرد في أوروبا، كانوا يتطلعون عند قدومهم إلى البلد إلى ركن يريحون فيه رؤوسهم بعد الحرب). "١٤"

وأخيراً لا جدال بأن قرية صوبا سقطت ليلة ١٢-١٣/ ٧ / تموز ١٩٤٨م، وقد تضاربت الأقوال اليهودية حول أسباب وكيفية سقوطها:"

- المؤرخ العسكري اليهودي يقول: استخدم اليهود كتيبتين مدعومتين بالمدفعية الثقيلة ومدافع المورتر في احتلال قرية صوبا، لأن موقع القرية استراتيجي ومرتفع، واحتلالها يزيل الخطر عن طريق القدس.
- المصادر الصحفية اليهودية تقول: تم احتلال القرية "بواسطة مجموعات البلماخ" وذلك بسبب القصف العنيف للقرية بالقنابل.
- أما أقوال المتحدث العسكري الإسرائيلي لصحيفة "نيويورك تايمز": فإن القرية تم احتلالها بدون إراقة دماء، ثم أضاف وباحتلال قرية صوبا وضعت نهاية لحلم العرب بقطع طريق تل أبيب – القدس. "١٥"

****

صوبا بعد الرحيل

دُمّرت الحلقة الخارجية من بيوت القرية جزئياً من قبل القوات الإسرائيلية الذين نصبوا على البقايا نظام دفاعي ومواقع إدارية، محوّلين صوبا بذلك إلى موقع عسكري استراتيجي لمدة أخرى للدفاع عن طريق القدس الحيوي إلى البحر.

لقد دمر اليهود هذه القرية العريقة وشتتوا سكانها، وأقاموا في موقعها عام ١٩٤٩م قلعتهم "تسوفا" Tsova، وهو كيبوتز أسسه محاربون في الجيش الإسرائيلي على أراضي قرية صوبا العربية عام ١٩٤٨م "مستعمرة أميليم"، سكانه يهود على طريق القدس "استاؤل" بالقرب من مستعمرة "ماعوز تسيون" وقرب آثار قرية القسطل العربية المدمرة. "١٦"

وقد استغل مستوطنو الكيبوتس أراضي صوبا في زراعة أشجار الفواكه ومن أهمها التفاح والكيوي وغيرها من الأشجار المثمرة.

وفي أراضي مراح بدير أقاموا مصنعاً للزجاج طوّر صناعته أخيراً حتى أصبح يصنع زجاجاً مضاداً للرصاص. "١٧"

وبعد عام ١٩٤٨م وتهجير أهالي صوبا عن قريتهم أعطى اليهود بعض أراضي صوبا في رأس عين رافا ووادي القسطل لأهالي بيت نقوبا للسكن واستغلال بعض أراضي صوبا، بعد أن رحّلتهم قسراً عن قريتهم بيت نقوبا القريبة من شارع القدس– يافا، في الجهة الشرقية من قرية أبو غوش، وقد أطلق اليهود على هذا المكان اسم "عين نقوبا" ليمحى اسم بيت نقوبا من ذاكرة الأجيال القادمة.

أما مركز المعلومات الوطني الفلسطيني فقد أفاد في صفحته الأولى عن قرية صوبا بأن "المنظمات الصهيونية المسلحة قامت بهدم القرية وتشريد أهلها البالغ عددهم عام ١٩٤٨م حوالي (٧١٩) نسمة، وكان ذلك في ١٩٤٨/٧/١٣م، وعلى أنقاضها أقام اليهود مستعمرة "توصوفا" عام ١٩٤٩م، أما في عام ١٩٤٨م فقد أنشئت على أراضي القرية مستعمرة "أميليم"، ثم سميت لاحقاً كيبوتس "تسوفاه"، وفي عام ١٩٦٤م أنشئت مدرسة تدعى "يديدا".. وما زالت بقايا القلعة الصليبية ظاهرة إلى اليوم مع بقايا البيوت.. ويبلغ مجموع اللاجئين من هذه القرية في عام ١٩٩٨م حوالي (٤٤١٧) نسمة".

في قرية صوبا ما زالت بقايا القلعة الصليبية ظاهرة في موقع القرية، يكسوها نبات الصبار على المصاطب التي في أسفل الجبل بين أشجار التين واللوز والسرو، ولا تزال شبكات الخنادق التي حفرها الجيش الإسرائيلي في الجهة الشمالية الشرقية من قمة الجبل، والتي حُفرت مقابل الجيش العربي الأردني الذي كان مرابطاً في منطقة الرادار شمال شارع القدس– يافا، لا تزال بادية للعيان. "١٨"

أما قرية عين رافا المقامة على أراضي صوبا قرب عين الماء، فقد زاد عدد سكانها من ٦٥ شخصاً قبل ١٩٤٨م إلى أكثر من ٧٠٠ نسمة، وكلهم من المسلمين، وأصبح فيها مدرسة ابتدائية، كما انتشرت بيوتها بين البساتين والأشجار المثمرة، ولا زالت عائلاتهم تتطلع بشوق ولهفة إلى بيوتهم وبيوت أقاربهم من أهالي صوبا المدمرة التي تتربع فوق جبل صوبا، والتي أصبحت معلماً أثرياً وسياحياً في منطقة جبال بيت المقدس الغربية. "١٩"

****

صوبا واحدة من أصل ٤٧٥ قرية دُمّرت عام ١٩٤٨م، كما أزيل ٣٨٥ قرية من الخريطة الفلسطينية.

صوبا اليوم مليئة بأشجار الصبار بعد أن أقتلعت من أرضها أشجار الزيتون والرمان، واندثرت معالمها، لكن حجارتها تدل على أن قرية كانت هناك، وهي بانتظار الفجر لتعود، تنفض الغبار عنها وتصحو إلى الوجود ثانية.

كان أهلها مزارعين يعيشون بسلام مع اليهود، ويتعايشون معهم، لكن هجوم اليهود على القرى واحتلالهم للمدن وطمعهم بالأرض الفلسطينية جعل منهم أعداء.. صوبا قرية عربية فلسطينية القلب والعينين.. وما زال أهلها يتطلعون كباقي شعب فلسطين إلى العيش بكرامة مثل شعوب الدنيا، لهم وطن ولهم كيان.

قبور الأجداد فيها تنادي، تبتهل، تدعو الأبناء لزيارتها وقراءة الفاتحة، والحنين ما زال يُبحر في أعماق الأبناء، يتطلعون بشوق، يرحلون بأبصارهم كل يوم، يتمنون العودة والصلاة على التراب المقدس.

من دموع الحزن والشوق نبتت وارتوت أشجار الصبار.

صوبا.. قرية كانت شاهدة على تاريخ شعب، كما كانت شاهدة على حضارة عظماء الشهداء في بطنها، تتململ وتكاد تنهض من قبورها لتشهد تاريخ صوبا.

في آثارها كان أناس طيبون، يأملون بالخير ويحبون الحياة.. صوبا كانت عامرة بالناس الطيبين، يحبون الزيت والزيتون والزعتر وعصير الليمون، يشربون القهوة السادة، وعصير البرتقال.. يحبون المساجد والأرض، لكنهم اقتلعوا من أرضهم.. فمتى أحفادهم يعودون؟!.

****